مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 03 (2020) - ص 96- 106

ألف ليلة وليلة قراءة في الأنساق الثقافية – نماذج مختارة

THOUSAND AND ONE NIGHTS A READING INTO CULURAL SYSTEMS –SELECTED SAMPLES-

عواس الوردي[1] كمال طاهير[2]
Dodo.wardi40@gmail.com katahir05@hotmail.fr
جامعة عباس لغرور - خنشلة/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/10/04 تاريخ القبول: 2020/01/17 تاريخ النشر: 2020/06/01

ملخص البحث

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على مختلف الأنساق الثقافية في حكايات ألف ليلة وليلة التي تعتبر من أهم أشكال الكتابة الإبداعية في السرد العربي القديم ، نظير ما تزخر به من قصص ونصوص تجسد التفاعل الثقافي والفكري بين مختلف الثقافات ، ولعل الناظر في مكنونات هذا العمل الإبداعي تستوقفه جمالياته اللغوية والبيانية لمحاولة البحث عن الأبعاد الاجتماعية والثقافية من خلال تطبيق إستراتيجية النقد الثقافي، ومعرفة أهم الأنساق المضمرة في ثنايا النص وربطها بالبنية اللفظية والوضع الاجتماعي والثقافي والتاريخي.

الكلمات المفتاحية : النقد الثقافي، النقد الأدبي، السرد ،النسق ، ألف ليلة وليلة .

ABSTRACT:

This essay attempts to shed the light on the wide variety of cultural formats in the Arabian nights this literally work with oriental origin gathers many tales that embody cultural and intellectual interaction among different cultures ، observers are fascinated by its linguistic and emphatic pieces of rhetoric. as they endeavour to locate its social and cultural dimensions through applying cultural criticism strategy .the identifications of the most important formats embedded within the texte and linking these formats with the verbal structure .the social. cultural and historical background.

Key words: Cultural Criticism, Literary Criticism, Prose, Format, The Arabian Night

1/مقدمة:

يشكل النقد الثقافي أحد المناهج النقدية الحديثة التي تسعى إلى الغوص في أعماق الأعمال الإبداعية بمختلف أشكالها وأنواعها بحثا عن الأنساق المضمرة وراء ستار الجانب الجمالي ، بخلاف ما يسعى إليه النقد الأدبي من خلال تركيزه على الجانب الجمالي للنصوص دون الولوج إلى خفايا الخطابات الأدبية ، ليكون بذلك – النقد الثقافي – نقطة انطلاق وتحول من الأدبي

[1] المؤلف المرسل: عواس الوردي.

إلى الثقافي بحثا عن ما يسميه الدارسون والنقاد بالأنساق الثقافية المضمرة التي أغفلها النقد الأدبي بفضل انحيازه للجمالي والأدبي دون الثقافي، والسرد العربي يحفل بالكثير من النماذج الإبداعية التي تعكس الجمال الفني ناهيك عن الخطابات الثقافية المضمرة التي تحملها.

ويعد نص ألف ليلة وليلة من أهم النصوص السردية العربية القديمة التي جالت فيه أقلام النقاد بحثا عن الجانب الجمالي و العجائبي لهذا الموروث السردي ،خاصة وأنها تمثل سجلا بشريا ثقافيا أسهمت في تشكيله عدة حضارات وثقافات ،مما يطرح عدة تساؤلات حول طبيعة تشكّله وتمظهره في ذاته، ورصد أهم الأنساق الاجتماعية والسياسية التي كونت هذا العمل الإبداعي،ومنه يسعى هذا المقال للبحث في عناصر تشكيل حكايات ألف ليلة وليلة معتمدين بذلك على إستراتيجية النقد الثقافي نظير وجود جملة من الأنساق الثقافية الظاهرة والمضمرة التي تحكم ثنايا النص في بنيته العميقة ،لنطرح من خلال هذا كله إشكالية محورية مفادها :ما هي أهم الأنساق الثقافية التي أسهمت في تشكيل وبلورة العنصر البنائي لحكايات ألف ليلة وليلة ؟

وقبل الحديث عن هذه الأنساق في النص لابد من عرض مفهوم النقد الثقافي ، وتبيان علاقته بالنقد الأدبي ، وصولا إلى تحديد أصل ألف ليلة وليلة تسهيلا لعملية استنطاق الأنساق الثقافية نظير التداخل الواضح بين الثقافات.

2/ مفهوم النقد الثقافي :

لقد برز النقد الثقافي في الساحة العربية مع الناقد العربي **عبد الله الغذامي** الذي انطلق لتشكيل كتابه الموسوم بالنقد الثقافي من أعمال **الناقد الأمريكي ليتش** في النقد الغربي الحديث،بحيث ربطه وحدده في ثلاثة خصائص جوهرية، أما الخاصية الأولى أن النقد الثقافي لا يحدد ولا يؤطر فعله تحت إطار التصنيف المؤسساتي للنص الجمالي ،وإنما بالانفتاح على مختلف الأشكال الخطابية والظواهر الإبداعية ، وتتحدد الخاصية الثانية من كونه يستفيد من مناهج التحليل المعرفية كتأويل النصوص ودراسة خلفياتها التاريخية والاجتماعية ،فضلا على إفادته من الموقف الثقافي النقدي في تحليله للنصوص الأدبية، كما حصر ليتش الخاصية الأخيرة في تركيز إستراتيجية النقد الثقافي على أنظمة الخطاب داخل النص[1]....

انطلاقا من هذه الخصائص يمكن تحديد مفهوم دقيق لاستراتيجية النقد الثقافي إذ يعرفه عبد الله الأنصاري بكونه "يدرس النص لا من الناحية الجمالية ،بل من حيث علاقته بالإيديولوجيات والمؤثرات التاريخية والسياسية والفكرية، ويقوم بالكشف عنها وتحليلها بعد عملية التشريح النصية "[2] وهذا يفسر أن النقد الثقافي ينطلق من الجانب الفني والجمالي أولا مرورا بالبنية العميقة واستظهار الأنساق المضمرة وراء الجمالي والفني ، مما يشكل جوهر الدراسة في النقد الثقافي بحثا عن الجوانب والأطر المعرفية والثقافية التي تتوارى لمجتمع ما، وتمرر أنساقها ويستهلكها المجتمع جماليا ،وعليه فالنقد الثقافي تقنية وإستراتيجية تتجه صوب النص بهدف ردّه إلى الأنساق الثقافية التي أسهمت في بلورة دلالته وبحثا عن القيم الثقافية المضمرة في عوالم العمل الإبداعي، بالاعتماد على فكرة النسق الثقافي التي حدّدها الغذّامي من خلال وظيفته المحددة والمقيدة حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر

مضمر، بحيث يكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر في نص واحد بشرط أن يلقى النص قبولا جماهيريا جماليا ،لأن مواصفات النقد الثقافي تتمظهر وراء الجمالي الذي يخفي الكثير من الأنظمة الثقافية[3]

3/ علاقة النقد الثقافي بالنقد الأدبي :

يكتسي النقد الأدبي قيمة كبيرة في النقد العربي القديم نظير سعيه الدائم للبحث عن مكونات الجمال في متون الأجناس الأدبية، ومع وصول النقد الثقافي إلى الأوساط الأدبية والنقدية توسعت الدراسات والقراءات التأويلية لهذه الأجناس بمختلف أشكالها، وفي هذا السياق يقر الغذامي بأن النقد الثقافي ظهر في مرحلة شهد فيها النقد الأدبي خمولا وركودا، بحيث استنفذ مجمل ما يمتلكه من طاقة سعيا للكشف عن مظاهر الجمال في النص الأدبي كونه قيمة جمالية نسعى دوما لمعرفتها وتبريرها، وهذا ما جعل الدارسين يتجهون إلى اعتبار الجمال منتجا بلاغيا محتكرا وشرطا مؤسساتيا في يد الشاعر والأديب[4]، ليفتح بذلك النقد الثقافي المجال على موضوعات غير أدبية لم يتطرق إليها النقد الأدبي وقام بإغفالها وتجاوزها.

ورغم الانتقادات الموجهة من قبل النقاد والدارسين نتيجة الاهتمام والإعلاء من شأن النقد الثقافي على حساب النقد الأدبي ،فإن الغذامي توصل إلى فكرة جوهرية مفادها أن النقد الثقافي ليس بديلا عن النقد الأدبي بقدر ما يمثل امتدادا له[5] وأن كلاهما يكمل الآخر والعلاقة بينهما علاقة تكاملية وطيدة ولكل منهما قواعد وأسس ينبني عليها، مما يجعل من النقد الأدبي عنصرا فاعلا وموجودا يسعى للكشف عن تشكلات اللغة الجمالية، والأمر كذلك للنقد الثقافي الذي يمثل العملية التشريحية الثانية للنص بحثا عن نسقية المضمر وراء الشكل الجمالي مما يؤكد على طرح واضح حقيقته أنه لا وجود لإلغاء منهجي لفكرة النقد الأدبي ،بل سنعتمد عليه وننطلق من جماليته بحثا عن حقيقته ليصبح النقد الأدبي جزءا مهما في عمل النقد الثقافي، فإذا كان الأول يركز على النص في حد ذاته بحثا عن جماليته وأدبيته بالاعتماد على مناهجه الحديثة، فالنقد الثقافي ينظر إلى النص من حيث ما يتحقق فيه وما ينكشف عنه من أنظمة ثقافية، وكأن الأمر أشبه بعملية دورية بين النقد الأدبي حينما ينهي عمله وتحليله الفني، يعطي الدور للآخر للكشف عن الأمور التي يحاول المؤلف تمريرها تحت غلاف جمالية النص[6]، ليستفيد النقد الثقافي من الأدبي من خلال النتاجات المعرفية المتراكمة في الخبرات الإنسانية واضعا في نفس الوقت هذه الخبرات على طاولة التحليل والنقد، كمجالات علم العلامات والتحليل النفسي والنظريات الاجتماعية والأنثروبولوجيا التي أفاد منها رغبة في الكشف عن الأنساق الثقافية والعمل على معرفة خبايا وحقائق النصوص وما تحمله من رموز ورسائل مشفرة تحتاج إلى الكثير من العمل لفحصها واكتشافها،[7] ليكون بذلك النقد الثقافي إستراتيجية نقدية مهمة لاستظهار الأنساق المضمرة داخل الأعمال الإبداعية وكل ما تنتجه الثقافة الرسمية والشعبية، مما أعطى للنقد الثقافي أهمية كبيرة في الساحة الأدبية والنقدية.

إذن عن طريق النقد الثقافي يمكن تقديم قراءة جديدة لمختلف الأعمال الأدبية وتبسيط الصورة للمتلقي، وصولا لفك مغالق وشفرات النص التي تخفي الكثير من الأنساق المضمرة والمتصارعة التي يحاول المؤلف أن يمرّرها باستعمال حيل اللغة وغيرها من تقنيات الإبداع الفني، فالنقد الثقافي أسهم وبشكل كبير في تطوير الأفكار القديمة وأضحى عنصرا فاعلا في أعماق النصوص كونه يعيد النظر إلى زوايا مختلفة من

الجماليات التي تحكم الأعمال الأدبية، ناهيك عن تجاوزه الأحكام الذوقية الجاهزة وعدوله التام عن الكلمات المباشرة من خلال ربط النص بكل ما يحيط به حيث يقارب النقد الثقافي الخطاب باختلاف شكله شعرا أو نثرا، ويركز على الجانب المضمر الذي يتحكم في سياق إنتاج النص[8]، فيحاول تأويل الرموز والأقنعة والقيام بتحليلها، والكشف عن علامات المثاقفة بين الثقافتين دون إهمال العنصر الجمالي للنص، وتحديدا لأهم الأنساق الثقافية المتحكمة في توليد النص.

ولتوسيع دائرة البحث وتبيان طريقة الكشف عن الأنساق المضمرة داخل النص سنحاول تطبيق استراتيجية النقد الثقافي على حكايات ألف ليلة وليلة باعتبارها أحد النصوص السردية التي حفلت بالكثير من الدراسات والأبحاث، نظير ما تحتويه من قصص وحكايات تحوي الكثير من الأنساق الثقافية المضمرة التي نسعى إلى استنطاق بعض نماذجها من خلال بعض الحكايات، وقبل المثول إلى تحديد هذه الأنساق وجب التعريف بهذا المتن السردي القديم للمتلقي وتسليط الضوء على أصله نتيجة كثرة الآراء والدارسات حوله.

4/ الحكاية الإطار لحكايات ألف ليلة وليلة :

يعد نص ألف ليلة وليلة من أهم النصوص السردية التي حفل بها السرد العربي القديم رغم ما يحويه من تأثير للحضارات الأخرى والاختلافات القائمة حول أصل هذا المؤلف الإنساني،إلا أنه يبقى كتابا مميزا لاق انتشارا وتأثيرا واسعا على مختلف ميادين الأدب الإنساني، وهذا ما جعل الدارسين يتجهون صوب دراسته واكتشاف سر هذا الإنتاج الأدبي المتميز، وطبعا لا يخفى على أحد أن الحكاية الإطار لنص ألف ليلة وليلة تدور حول حكاية واحدة تتمثل في حكاية الملك شهريار الذي حكم على جميع النساء بالموت بسبب خيانة زوجته له مع أحد عبيده، كما هو الحال عند أخيه الملك شاه زمان الذي وجد هو الآخر زوجته تخونه مع أحد عبيده أيضا...من هنا كان قرار الملك شهريار بقتل كل امرأة بعد الدخول عليها حتى جاء الدور على ابنة الوزير الذي لم يجد أي فتاة يحضرها للملك فبقي حائرا من أمره وخائفا من بطش الملك، لتعرض عليه ابنته (شهرزاد) نفسها ليقدمها للملك حينما قالت " بالله يا أبت زوجني هذا الملك ،فإما أن أعيش وإما أن أكون فداء لبنات المدينة"[9]

وطبعا كان قرارها لا ينصّ على قتل شهريار أو الانتقام منه أو وضع شيء له، وإنما كانت وسيلتها الحكاية التي تقصها عليه في كل ليلة، وكانت لا تنتهي من قصها ليحين الصباح فتسكت عن الكلام وتواصل الحديث في الليلة الموالية، لتستمر على هذه الحال مدة ألف ليلة وليلة كانت نتيجتها تحول الملك شهريار من ملك ظالم قاهر يقوم بقتل النساء رغبة في الانتقام إلى شخص متفهم وجد في شهرزاد الزوجة النبيلة والذكية وأم أطفاله الثلاثة الذين ولدوا مع الحكايات التي كانت ترويها له، وهذا أهم ما جاء في ثنايا الحكايات التي جسدت الكثير من العادات العربية والشرقية مما يبرز روح التلاقح والتفاعل الثقافي بين مختلف الحضارات ، ليشكل هذا العمل الفني نصا متميزا أسهمت في تشكيله عدة ثقافات وحضارات مما فتح بوصلة البحث لدى النقاد عن هوية هذا النص.

5/ ألف ليلة وليلة إشكالية الهوية:

لقد تعددت الآراء والنقاشات حول هوية ألف ليلة وليلة، فهناك من يقر بأنها عربية الأصل مرتبطة بالبيئة العربية، ورأي آخر مغاير يعتبرها وافدة ودخيلة على الثقافة العربية عن طريق فعل الترجمة، ولو سلّمنا بالرأي الثاني نجد أول إشارة موثقة كتبت حول هذه الحكايات حديث المسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" في النصف الأول من القرن الرابع الهجري حيث اعتبرها أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمت تقرّبا للملوك بروايتها، وقام أهل العصر بحفظها وتداولها وأنها وافدة إلى الثقافة العربية عن طريق فعل الترجمة من اللغة الفارسية والهندية وكذلك الرومية لكتاب يدعى هزار أفسانه.[10]

وتأكيدا على نفس الرأي يؤكد ابن النديم في كتابه "الفهرست" أن أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان هم الفرس الأوائل ثم أغرق في ذلك ملوك الأشعانبة باعتبارهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس في أيام الساسانية، ونقلته العرب إلى اللغة العربية وقام الفصحاء والبلغاء بتناوله وتهذيبه ومحاولة تنميقه ،كما ربطه ابن النديم بكتاب هزار أفسانه السابق الذكر وسماه ألف خرافة[11]،كما أقرت الدكتورة سهير القلماوي في كتابها "ألف ليلة وليلة" أن الكتاب كان معروفا وتمت ترجمته أيام المأمون وأبو جعفر المنصور فضلا عن ترجمة الكثير من الآثار غير العربية في ذلك الوقت، فسهير القلماوي تقر بأن الكتاب الذي نراه لم يحكمه الثبات على الشكل الذي نراه اليوم كونه تعرض للكثير من الزيادة والتحوير والتطوير لأن قصصه كانت متناقلة شفاهية، لتصل للقول بأن الكتاب نقل إلى العرب بواسطة الترجمة من راوي إلى آخر فيحذف ويصف حتى جاز وقت تدوينه لنراه على هذه الحالة، لكن الجزم بأن النص فارسي أو هندي أمر مبالغ فيه نوعا ما كون الكتاب يحتوي كثيرا من ملامح الحضارة العربية عامة والثقافة العباسية خاصة كحكايات هارون الرشيد وأبو جعفر المنصور وغيرها من القصص التي تمتّ بصلة وثيقة للبلاد العربية ،وكما أسلفنا برأي متحفظ يرى أن الحكايات أصلها عربي، وهذا ما عبر عنه محسن مهدي الذي بذل جهدا كبيرا في البحث والمقارنة للكشف عن أصل الكتاب، وربط ذلك بقصص العرب ومفاخرها وما عرفته في جاهليتها وإسلامها وتناقلها كل الناس، وسارت إلي باقي الأمم ونقلتها الأعاجم وحاولت تحويرها وتطبيقها على ثقافتهم وعاداتهم ومنه فمحسن مهدي يقر بعربية الحكايات[12].

وفضلا على ما تم ذكره فإن المستشرقين كان لهم رأي كذلك في أصل الكتاب مما يعكس تأثيره الواضح في مختلف حضارات العالم، وجعل مفكري وأدباء العالم يحاولون رصد ومعرفة أصل هذا الكتاب كما تحدث المستشرق "البارون دي ساسي" الذي أكد على أن الكتاب عربي وحجته في ذلك أن تاريخ وزمن تأليفه ليس بعيدا ومرتبط بعصر الانحطاط أثناء سقوط الدولة العباسية على يد المغول والتتار[13] .

وعموما يمكن القول أن الصراع القائم حول هوية كتاب ألف ليلة يثبت علو هذا الكتاب، وجعل أقلام النقاد والباحثين تنهمر لدراسته وتحليله، وهناك من أكد على موقف وسطي يقر بأن الكتاب أصله شرقي نابع من الحضارات الفارسية والهندية وتمت ترجمته إلى الثقافة العربية وتحويره وتدوينه في تلك الفترة،

وبين هذا وذاك يمكن القول أن حكايات ألف ليلة وليلة أصلها شرقي وافد للحضارة العربية عن طريق الترجمة والتحوير.

6/الأنساق الثقافية في حكايات ألف ليلة وليلة :

يمثل كتاب ألف ليلة وليلة نموذجا إنسانيا يؤرخ لعدة حضارات تجسد الثقافات الشعبية وتداخلها كونه يجمع بين الطبقات الشعبية البسيطة والطبقات الرسمية الحاكمة ويجسد الصراع القائم بين الطرفين ، ويصور نظرة الأنا للآخر كما هو مجسد في حكايات الصبيان والنساء وضعاف النفوس وكيفية الخلاص من العواقب التي يضعها الملوك والحكام .

كما تصور الليالي الصراع القائم بين مختلف الثقافات والحضارات والديانات في مختلف العصور القديمة، والسياسة المستعملة من قبل الحكام تجاه المستضعفين والنساء اللواتي ضاعت قيمهّن وسط الطبقة الحاكمة التي تسعى إلى فرض سيطرتها في مختلف الشؤون والجوانب المحيطة بالإنسان عن طريق استعمال مختلف الوسائل والتقنيات التي تبيد الطبقة الضعيفة في تلك الفترة .

وشكل ميلاد شهرزاد الراوية الشخصية المتميزة في أسلوبها الحكائي نقطة تحول في حياة الطبقة الشعبية عامة والمرأة خاصة كونها حاولت أن تغير النظرة السلبية للملك شهريار بأن كل النساء خائنات،وتعيد البسمة إلى قلوب النساء اللواتي تكبدن الكثير من المعاناة والأحزان،فصنعت شهرزاد لنفسها شخصية المنقذ لبنات جنسها من وعيد الملك باستخدامها الحكاية كعنصر فعال في تأجيل عملية الموت، فاستمرت على ذلك النهج حسب ما ترويه الدراسات والأبحاث ألف ليلة وليلة حيث جمعت بين البساطة في الأسلوب في بعض الأحيان والجمال الإبداعي في نسج الأفكار وتضمين العجائبي في مواضع مختلفة، كما تضمنت قصصا حول حكايات هارون الرشيد وصراعه مع الفرس ،وكذلك حضور عالم الجن والعفاريت والسحر بكثرة وهي مستوحاة من ثقافة الهنود واليونان وغيرها من الثقافة التي شكلت كتاب ألف ليلة وليلة الذي يحتوي في أعماقه العديد من الأنساق الثقافية المضمرة وراء جدار اللغة وفسحة الخيال الفني الذي فرض عنصر التشويق عند القارئ لإكمال القراءة بحثا عن الدلالة العامة لكل حكاية. وفي خضم التداخل الحاصل بين الحضارات والثقافات ضمن هذا المتن السردي-ألف ليلة وليلة-وجدت مجموعة من الأنساق الثقافية التي شكلت صورة للصراع الانساني في هذه الحضارات على جميع المستويات سياسيا، اجتماعيا، دينيا...

1/6 النسق الاجتماعي:

يشكل النسق الاجتماعي محور الليالي بكثرة لأنه يعايش تجربة إنسانية اجتماعية تتعلق بالصراع القائم بين المرأة والرجل في سبيل الحياة، فبين ملك يدعى شهريار يرغب في الانتقام لنفسه وعظمته بقتل كل النساء واعتبارهن خائنات ولسن محل ثقة ووجب القضاء عليهن ،ينفجر نسق السلطة والهيمنة في أجزاء الحكاية في شخصية الملك الظالم المستبد، وفي الجهة المقابل نجد شخصية شهرزاد الفتاة المثقفة المطلعة على مختلف الكتب ترفع راية التحدي بطريقة غير مباشرة في وجه الملك المستبد كي تحمي نفسها وبنات

جنسها، فالمطّلع على الحكاية الإطار لليالي يلاحظ التصارع بين الرجل والمرأة بغية رد الاعتبار، أي أن الملك يحاول جعل السلطة للذكورة دون باقي الكائنات وأن المرأة مجرد نشوة جنسية للتسلية واللعب، ووجب أن لا تقدم لهن الثقة والوفاء كي لا تنصدم في الأخير، وكأن الأمر يحيلنا إلى نسق الذكورة والأنوثة، والمتتبع لجميع حكايات الليالي يجد أن المرأة توصف دوما بأنها مصدر الشرور والهم والوقوع في الخطيئة وهذا مدعاة لإقصاء المرأة وتهميشها.

ولعل من الحكايات التي تشكل نسقا اجتماعيا يضمر الكثير من الرموز والإشارات ما حدث في حكاية التاجر والعفريت[14] حينما وقع في يد العفريت لأنه قام بقتل ابنه بواسطة نوى تمر ،فيقرر العفريت معاقبته وقبل القيام بذلك يمنح فرصة العودة لبلده وتوديع أهله ويترك ابنه وزوجته، وبالفعل وفى التاجر بوعده للعفريت وعاد من أجل تحمل عقوبته، وهنا نكتشف نسقا مهما عرف في حياة الإنسان العربي القديم يتمثل في نسق الوفاء بالوعد وعدم الهروب من الواقع وتحمل المسؤولية ،وكأن بالنص يود إرسال رسالة مهمة أن شيم الوفاء والثقة تكون عند الرجل لا المرأة التي تخلف الوعد،وهنا وجب أن نعود لحكايتنا – التاجر والعفريت- وما قامت به زوجة التاجر حينما حولت ولده إلى عجل بالرغم من وعدها له، ولا يتوقف الأمر في هذه الحكاية بل يتعدى الحكايات المتفرعة من حكاية التاجر والعفريت في حكاية الشيخ صاحب الغزالة، وحكاية الشيخ الثاني صاحب الكلبتين وحكاية الشيخ الأخير الذين حاولوا مساعدة التاجر من خلال سرد ما حدث لهم من حكايات عجائبية تمثل الصراع بين نسقي الذكورة والأنوثة، والقارئ لها يلاحظ مدى وضوح الصراع بين المرأة والرجل الذي انتقل إلى عالم الجن والعفاريت والصراع المحتدم بين الشر والخير .

كما احتوت الحكايات على أنساق اجتماعية تتمثل في عنصر تغييب المرأة في المجتمع وإعطاء الأهمية للرجل دون المرأة واعتبارها وسيلة للتسلية وتفريغا للشهوات الجنسية، وأنها مصدر المشاكل والصعوبات التي يقع فيها الرجل ويمنعه من تحقيق مراده، ولعل حكاية الحمال والبنات الثلاث تثبت رغبتهن الشريرة في الوصول لأهدافهن باستعمال الجنس كسلاح للقضاء على سلطة الرجل .

لتجسد بذلك الليالي طبقة الذكورة السلطوية التي تسعى لفرض وجودها على سلطة الآخر المستضعف الذي لا يستطيع الدفاع وتقويم نفسه، وفي هذا إشارة للمرأة الجارية والعبد الأسود الذي يتعرض للذل والمهانة، مما جعلهم ينفجرون ضد الظلم كما نجد في حكاية الملكة إبريزه التي حاول العبد الأسود اغتصابها وقتلها، وكذلك في حكاية قمر الزمان وبحثه عن وسيلة للقضاء على المرأة التي حاولت قتله[15].

لنصل إلى فكرة مفادها أن الأنساق الاجتماعية حضرت بقوة في الليالي في العديد من الحكايات والقصص توزعت بين الصراع على السلطة والاستبداد، والأخذ والرد بين نسق الذكورة والأنوثة مرورا بالصراع بين الخير والشر وتداخل العوالم السحرية والعجائبية في تشكيل سرديات الحكايات وتمرير العديد من الأنساق الثقافية التي تغمر ثنايا وعوالم حكايات ألف ليلة وليلة .

وطبعا لابد من التنويه إلى فكرة اختيار شهرزاد كراوية ومحركة لعملية السرد في مختلف متون الحكي ليوصل مغزى واضح يتجسد في الصراع القائم حتى في الطبقة الحاكمة لحظة عدم إيجاد الوزير لفتاة يقدمها للملك، فرغم السلطة والقرابة إلا أن شهرزاد قررت الفداء بنفسها في وجه الملك شهريار لأن الأمر

مرتبط بنسق اجتماعي مهم يتمثل في الصراع بين الموت والحياة والخير والشر وانتصار الخير على الشر في نهاية المطاف كما حدث مع شهريار الذي تحول من شخص شرير إلى إنسان ذو قلب ورحمة على زوجته وشعبه.

2/6 النسق السياسي:

تحفل الحكايات بالكثير من الرؤى والأفكار السياسية التي نسجت في عوالم الحكايات وتعبر عن الكثير من العادات والتقاليد المنتهجة في الحروب وأنظمة الملك من الخلافة والملك وغيرها من التقنيات التي تم استعمالها، ولكن الشيء الملفت تواجد بعض الأفكار المضمرة داخل الحكايات كالنسق السياسي الذي يصور معالم الصراع والاحتدام بين الثقافة الفارسية والثقافة العربية، وما حدث لهارون الرشيد وصراعه مع الفرس والبرامكة وتحديدا مع جعفر بن يحي البرمكي، كما صورت الليالي بطريقة غير مباشرة سلطة هارون الرشيد المستبدة والتي لا ترحم أي شخص تعدى حدوده.

كما حملت الليالي صراعا بين عالم الجن والعفاريت ووجود عفاريت خيّرة وشريرة تسعى كل واحدة لفرض سيطرتها وهيمنها على العوالم الباطنية وتحاول تغيير الأقدار، وفي صورة تكررت كثيرا نجد العبد الزنجي شخصية غير مرحب بها في الليالي كونه رمز الخديعة والمكر، أما الإنسان الأبيض فهو متحفظ ويستطيع التغيير وأن السلطة بيده ولا يحق لأي أي أسود مشاركته في السلطة، كما حضر التميز العنصري بكثرة من خلال التميز بين الأعجمي المسلم والمجوسي كما هو موضح في الليلة 779 في كلام الأم التي تحذر ابنها حسن "احذر أن تسمع كلام الناس المجوس فإن هؤلاء غشاشون يمارسون صنعة الكيمياء وينصبون على الناس"[16]

ومن الأنساق السياسية أيضا نسق السلطة والرفض بين شهريار الملك الظالم القاتل لشعبه وبين شهرزاد حاملة لواء الحرية لإنقاذ بنات جنسها من جبروت شهريار، فشخصية شهرزاد كمحدثة وراوية التي تم اختيارها بتمعن دقيق هو نقد واضح وموجه للحاكم الظالم شهريار بغية إصلاحه نفسيا باعتباره مريضا بداء الشك الدافع إلى العنف .

كما تحيل إلى فكرة جوهرية مفادها الترابط الوثيق بين السياسة والدين كونهما نسقان مكملان لبعضهما البعض، وهي رسالة للحاكم وكل الملوك بضرورة المزج بين الدين والسياسة لنجاح وبناء الدولة ،فالدين جوهر الحياة الصحيحة وأساس بناء النظام المعتدل، وكأن شهرزاد تود إخبارنا أن الملك الظالم الخارج عن سوار الدين والمهمل لقضاياه السياسية سيؤدي بنفسه وبشعبة إلى التهلكة، فألف ليلة وليلة حكايات تود تعليم طرق السياسة الصالحة وغير الصالحة وكيفية الخروج من المشاكل والعراقيل .

ولو تفحصنا الليالي أكثر نجد نسق آخر تحاول الحكايات تمريره من خلال فكرة الملك والعدل التي سبق وأن تحدث عنها ابن خلدون في كتابه "المقدمة" ،وتمت الإشارة إلى هذا الجانب عن طريق الحديث الرمزي على لسان الحيوانات كرمزية الأسد والثعلب تشبيها للملك والوزراء الذين عادة ما ينكرون فضل ملوكهم بغية الوصول إلى السلطة باستعمال مختلف الطرق والسبل الكفيلة بتحقيق ذلك.

وعودة إلى فكرة العدل والملك التي تجسدت في مختلف الحكايات وهي دلالة مباشرة على العلاقة الوثيقة بينهما وعادة ما ترفع راية العدل دون ذكر نوعية الحكم سواء كان ملكيا أو خلافة أو ولاية، ولكن العنصر الأهم يتجلى في قيمة العدل لتكوين سياسة صحيحة مفادها أن الدين بالملك والملك بالجند والجند بالمال والمال بعمارة البلاد وعمارة البلاد في العدل بين العباد.

وخير مثال ما حدث من صراع في الأوساط الحاكمة طمعا في الحصول على السلطة وامتلاك معالم الحكم، ومحاولة فرض أفكارهم دون النظر في العواقب التي تنتج من فعل الخيانة وعدم الثقة وانتصار الخير على الشر رغم طول السنين ،نجد حكاية الملك عمر النعمان لما قام بتعيين الحاجب وصيا على عرش بغداد لرعاية الملك الصغير لأن الملك الأكبر كان قد تنازل لابنه بسبب المرض وكبر سنّه، ليقوم الوصي في الأخير بالانفراد بالحكم والطمع في الملك له ولأولاده ليعزل الملك الصغير عن الحكم ويخون العهد وهذه إشارة إلى أن عنصر الثقة والخيانة ليس حكرا على المرأة بل تعداه حتى إلى الأوساط الحاكمة.

ومنه يمكن القول أن الأنساق السياسية توزعت كثيرا في الحكايات في الصراع بين السلطة ورفض الحكم مرورا بالحديث عن السياسة الصالحة وضرورة تواجد العدل بين العباد لبناء دولة صحيحة وقوية ومبنية على تعاليم الدين.

3/6 النسق الديني والأسطوري :

لم تقتصر حكايات ألف ليلة وليلة على الأنساق الاجتماعية والسياسية، وإنما تعدت إلى أنساق أخرى تتحدد في بعديها الديني والأسطوري توزعت فيها قصص الليالي بالكثير من الجوانب الدينية كالصراع بين المجوس واليهود والمسلمين ،كما حملت الحكايات قصص الجن والعفاريت التي توزعت بين مناصري الخير والشر.

وقد جسدت الليالي عادات ومظاهر دينية لم تعرف في الدين الإسلامي، وإنما برزت في الثقافات الهندية والفارسية في عادات الزواج والفسق والانحلال الخلقي وزواج المحارم، الذي بسط على نفسه في معظم أجزاء النص.

ولعل من الأنساق البارزة بكثرة فكرة المسخ الديني التي لازمت النص وهذا ما يحيلنا على نسق الثقافة الهندية التي عرفت بالتناسخ والسحر العجائبي، ومن نماذج المسخ ما حدث في حكاية التاجر والعفريت حيث تحول ابن الشيخ الأول وزوجته إلى بقرة وعجل من طرف زوجته الأولى والحديث التالي يوضح لنا ذلك :"وكانت بنت عمي هذه الغزالة تعلمت السحر والكاهنة من صغرها فسحرت ذلك الولد عجلا وسحرت الجارية أمه بقرة"[17]

وهذه التحولات الإنسانية تحيلنا أن العرب لم تعرف هذه العادات بحكم الثقافة الإسلامية وهذه الأمور عرفت لدى الهنود لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وميزه بالعقل عن باقي الكائنات.

وفي نفس السياق نجد العنصر الأسطوري من خلال بعض العبادات الشريرة التي تمارس من قبل قبائل الهنود القديمة كالسحر والشعوذة واستحضار العفاريت المميتة ،وهذا ما يجعلنا نفهم أن حكايات ألف

ليلة وليلة تحتوي في داخلها سمات الأسطوري الذي لا يتقبّله العقل البشري نتيجة تدخل الخوارق في تكوين الأشياء وحدوثها وصراعها مع الإنس ،مما يفسر الكثير من الممارسات غير البشرية التي تستعمل من قبل العفاريت والجن وأضافت عنصر التشويق والخيال الفني.

ونأخذ على سبيل المثال حكاية الصياد والعفريت حينما قام الشاب بتحويل سكان مدينته إلى أسماك حيث نقرأ "وكانت مدينتنا أربعة أصناف مسلمين ونصارى ويهودا ومجوسا سحرتهم سمكا فالأبيض مسلمون والأحمر مجوسا والأزرق نصارى والأصفر يهودا"[18] فحقيقة هذا السحر ما هو إلا نوع من المسخ الذي شكل تجاوزات على العقل البشري وعلى قوانين الطبيعة لتمثل بذلك فكرة المسخ والسحر عنصرا أسطوريا عجائبيا يحيل على طبائع الإنسان القديم وطرائق معايشته للحياة باستعمال مختلف الديانات المتعددة التوجهات إلا أنها كانت تعيش في منطقة واحدة، ومدينة الأسماك خير مثال لأنها ترمز للقبائل الوافدة لبغداد والبصرة من أجل التجارة والتزود بمختلف متطلبات الحياة،ومنه يمكن القول أن حكايات ألف ليلة وليلة احتوت على الكثير من الأنساق الثقافية حاولنا من خلال دراستنا التركيز على الأنساق الثقافية المهمة والواردة في معظم الحكايات مع تمثيلها ببعض النماذج.

7/ خاتمة:

وفي ختام الدراسة يمكن القول أن النقد الثقافي من أهم الأدوات والاستراتيجيات النقدية التي تهدف لمقاربة الأعمال الأدبية بحثا عن الآليات الثقافية التي أسهمت في تشكيل السياق العام للنص ،سعيا لتحديد الأنساق الثقافية المضمرة وراء جدار الجمالية والفنية التي تحكم النص الأدبي.

يكتسي النقد الأدبي علاقة وثيقة بالنقد الثقافي كعلاقة الابن بوالده، ويكمل كل واحد منهما الطرف الآخر في عملية تحليل وتفكيك النص الأدبي بدءا بالجانب الجمالي وتشكّلات اللغة ودور الخيال في بناء النص، ليليه النقد الثقافي كخطوة موالية لفهم الأطر الثقافية والمعرفية لتشكل مختلف الخطابات الأدبية منطلقين من مقولة جوهرية لا وجود لنص بدون ثقافة مجتمع.

يحظى النقد الثقافي بأهمية واسعة بين أوساط الدارسين والباحثين نظير تقديمه لرؤية مغايرة في كيفية مقاربة النصوص الإبداعية على اختلاف أشكالها شعرا أو نثرا أو أدبا رسميا أم شعبيا، يسعى من خلالها النقد الثقافي لمقاربة النص ثقافيا لا جماليا.

تعددت الدراسات والأبحاث في البحث عن أصل وهوية مؤلف ألف ليلة وليلة بين رأي متحفظ أصيل متمسك بالثقافة العربية ويعيد حقيقة تبلور هذا العمل الفني إلى عصر الانحطاط في الثقافة العباسية وتواجد حكايات لهارون الرشيد وصراعه مع الفرس، أكبر دليل لهذا الرأي وفي مقابله يطفو على السطح رأي آخر لا يقر بعربية ألف ليلة وليلة، وإنما يعتبرها دخيلة على الثقافة العربية عن طريق فعل الترجمة، وهذا هو الأقرب إلى الصواب نتيجة تواجد الكثير من القصص الهندية والفارسية التي تعود إلى كتاب هزار أفسانه.

احتواء حكايات ألف ليلة وليلة على جملة من الأنساق الثقافية تباينت بين النسق الاجتماعي والديني والسياسي، حيث لعبت هذه الأنساق دورا مهما في تمثيل وتكوين العناصر الثقافية لكتاب ألف ليلة وليلة، فكان الصراع بين المرأة والرجل أو ما يسمى الذكورة والأنوثة أكثر بروزا وانتشارا ليمثل حلقة مهمة في بناء الحكاية الإطار، والتي يرغب الراوي من خلالها التأكيد على ضرورة النظر في العلاقات البشرية بتمعّن وثقة، وضرورة إتباع الدين لبناء دولة صحيحة ومقبولة في أوساط الشعب تعتمد العدل معيارا والدين أساسا والسياسة الصالحة كوسيلة للتقدم وصلاح الشعوب والأمم.

الهوامش:

[1]- ينظر: عبد الله الغذامي ،النقد الثقافي ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ،ط3،2005م،ص:22.

[2]- يوسف عبد الله الأنصاري ، النقد الثقافي وأسئلة المتلقي ،جامعة أم القرى ،السعودية ،2008،ص:46.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص:88-87.

[4]- ينظر: سعيد علوش، نقد ثقافي أم حداثة سلفية، المجلس الأعلى للثقافة،مصر،ط1،2001،ص:19،18

[5]- ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي ،ص:16.

[6]- ينظر: هاني علي سعيد ،مسارات النقد الثقافي ،مجلة الرافد ،الشارقة ،دط، 2010،ص:24

[7]- حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1،2008،ص:20

[8]- ينظر: المرجع نفسه،ص:15-16.

[9]- ألف ليلة وليلة مج1، المكتبة الثقافية ،بيروت ،لبنان،دط،دت،ص:11.

[10]-ينظر:عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي ج2،المؤسسة العربية للنشر، لبنان ،دط،2008،ص:180.

[11]ينظر:أحمد الشحاذ، الملامح السياسية في حكاية ألف ليلة وليلة ،دار الشؤون الثقافية ،العراق ،دط،ص:30.

[12]- ينظر: عبد الله إبراهيم ،موسوعة السرد العربي، ج1،ص:187-188

[13]-ينظر: المرجع نفسه،ص:190

[14]-ينظر :ألف ليلة وليلة،مج1،ص:12-13.

[15]-ينظر:ألف ليلة وليلة، مج1،ص:40،39،26،25

[16]- ألف ليلة وليلة، مج2،ص:180.

[17]-المصدر نفسه، مج2،ص:13

[18]-المصدر نفسه، مج،ص:189.